الزهو والحسد والكذب والخيانة فلم أعرفها بطبعي قط وكأنني لا حمد لي فى تركها لمنافرة جبلّتي إياها والحمد لله رب العالمين

من عيب حب الذكر أنه يحبط الاعمال اذا أحب عاملها أن يذكر بها فكاد يكون شركاً لأنه يعمل لغير الله تعالى وهو يطمس الفضائل لأن صاحبه لا يكاد يفعل الخير حباً للخير لكن ليذكر به

أبلغ فى ذمك من مدحك بما ليس فيك لأنه نبّه على نقصك . وأبلغ فى مدحك من ذمك بما ليس فيك لانه نبه على فضلك ولقد انتصر لك من نفسه بذلك وباستهدافه الى الانكار واللائمة

لو علم الناقص نقصه لكان كاملا . لا يخلو مخلوق من عيب فالسعيد من قلّت عيوبه ودقّت . أكثر ما يكون مالم يُظن فالحزم هو التأهب لما يُظن فسبحان من رتّب ذلك ليُري الانسان عجزه وافتقاره الى خالقه عزوجل

﴿ فصل فى الاخوان والصداقة والنصيحة ﴾

إستبقاك من عاتبك . وزهد فيك من استهان

بسيئاتك . العتاب للصديق كالسبك للسبيكة فإما تصفو واما تطير

من طوى من اخوانك سرّه الذى يعنيك دونك أخوَنُ لك ممن أفشى سرّك لأنَّ من أفشى سرك فانما خانك فقط ومن طوى سره دونك منهم فقد خانك واستخونك

لا ترغب فيمن يزهد فيك فتحصل على الخيبة والخزي

لاتزهد فيمن يرغب فيك فإنه باب من أبواب الظلم وترك مقارضة الاحسان وهذا قبيح

من امتحن بأن يخالط الناس فلا يُلقِ بوهمه كله الى من صحب ولا يبن منه الا على أنه عدوّ مناصب ولا يُصبح كل غداة الا وهو مترقب من غدر اخوانه وسوء معاملتهم مثل ما يترقب من العدو المكاشف فان سلم من ذلك فلله الحمد وان كانت الأخرى ألفي متأهباً ولم يمت هماً . وأنا أعلمك أن بعض من خالصني المودة وأصفاني اياها غاية الصفاء فى حال الشدة والرخاء والسعة والضيق والغضب والرضى تغيّر عليَّ أقبح تغيرٍ بعد اثني عشر عاما متصلة فى غاية الصفاء ولسببٍ

لطيف جداً ما قدّرت قط أنه يؤثّر مثلُه في أحد من الناس وماصلح لى بعدها ولقد أهمني ذلك سنين كثيرةً هماً شديداً . ولكن لا تستعمل مع هذا سوء المعاملة فتلحق بذوي الشرارة من الناس وأهل الخبِّ [1] منهم . ولكن هاهنا طريق وعرة المسلك شاقة المتكلف يحتاج سالكها الى أن يكون أهدى من القطا [2] واحذر من العقعق [3] حتى يفارق الناس راحلا الى ربه تعالى وهذه الطريق هى طريق الفوز فى الدين والدنيا يحرز صاحبها صفاء نيات ذوي النفوس السليمة والعقود الصحيحة البرآء من المكر والخديعة ويحوى فضائل لابرار وسجايا الفضلاء ويحصل مع ذلك على سلامة الدُّهاة وتخلّص الخبثاء ذوي النكراء والدّهاء وهي أن تكتم سرّ كل من وثق بك وأن لا تُفشي الى أحد من اخوانك ولا من غيرهم من سرّك ما يمكنك طيُّه بوجه ما من الوجوه وإن كان أخص الناس بك وان تفي لجميع من ائتمنك ولا تأمن أحداً على شيء من أمرك تُشفق عليه الا

---

(١) الخداع والخُبث والغش (٢) طائر كالحمام أو نوع منه (٣) طائر على قدر الحمامة وشكل الغراب يوصف بالحذَر وهو لا يأوي تحت سقف

الضرورة لا بدّ منها فارتدْ حينئذ واجتهد وعلى الله تعالى الكفاية . وابذل فضل مالك وجاهك لمن سألك أو لم يسألك ولكل من احتاج اليك وأمكنك نفعه وان لم يعتمدك بالرغبة ولا تشعر نفسك انتظار مقارضة على ذلك من غير ربك عزّ وجل ولا تبن الا على أن من احسنت اليه أوّل مضرّبك وساع عليك فإن ذوي التراكيب الخبيثة يبغضون لشدة الحسد كل من أحسن اليهم اذا رأوه فى أعلى من أحوالهم . وعامل كل احد فى الانس أحسن معاملة وأضمر السلوّ عنه إن فات بعض الآفات التى تأتي مع مرور الايام والليالي تعش مسالماً مستريحاً

لا تنصح على شرط القبول ولا تشفع على شرط الاجابة ولا تهب على شرط الإثابة لكن على سبيل استعمال الفضل وتأدية ماعليك من النصيحة والشفاعة وبذل المعروف

حد الصداقة الذى يدور على طرفي محدوده هو أن يكون المرء يسوءه مايسوء الآخر ويسره مايسره فما سفل عن هذا فليس صديقاً ومن حمل هذه الصفة فهو صديق وقد يكون المرء صديقاً لمن ليس صديقه وأما الذى يدخل

في باب الاضافة فهو المصادق فهذا يقتضي فعلا من فاعلين إذ قد يُحب الانسان من يُبغضه وأكثر ذلك فى الآباء مع الأبناء وفى الاخوة مع اخوتهم وبين الازواج وفيمن صارت محبته عشقاً وليس كل صديق ناصحاً لكن كل ناصح صديق فيما نصح فيه

وحد النصيحة هو أن يسوء المرء ماضر الآخر ساء ذلك الآخر أو لم يسؤه وأن يسره مانفعه سرّ الآخر أو ساءه فهذا شرط في النصيحة زائد على شروط الصداقة

وأقصى غايات الصداقة التي لامزيد عليها من شاركك بنفسه وبماله لغير علة توجب ذلك وآثرك على من سواك . ولولا أني شاهدت مظفّراً ومباركاً صاحبي بَلَنْسِيَة لقدّرت ان هذا الخلق معدوم فى زماننا ولكني مارأيت قط رجلين استوفيا جميع أسباب الصداقة مع تأتّي الاحوال الموجبة للفرقة غيرهما

ليس شيء من الفضائل أشبه بالرذائل من الاستكثار من الاخوان والاصدقاء فإن ذلك فضيلة تامة متركبة لانهم لايُكتسبون الا بالحلم والجود والصبر والوفاء والاستضلاع

والمشاركة والعفة وحسن الدفاع وتعليم العلم وبكل حالة محمودة. ولسنا نعني الشاكرية والأتباع أيام الحرمة فاولئك لصوص الاخوان وخبث الاصدقاء والذين يظن أنهم أولياء وليسوا كذلك ودليل ذلك انحرافهم عند انحراف الدنيا ولا نعني أيضاً المصادقين لبعض الاطماع ولا المتنادمين على الخمر والمجتمعين على المعاصي والقبائح والمتألفين على النيل من اعراض الناس والأخذ في الفضول وما لا فائدة فيه فليس هؤلاء اصدقاء ودليل ذلك ان بعضهم ينال من بعض وينحرف عنه عند فقد تلك الرذائل التي جمعتهم وانما نعني اخوان الصفاء لغير معنى الا لله عز وجل إما للتناصر على بعض الفضائل الجدّية واما لنفس المحبة المجردة فقط . ولكن اذا أحصيت عيوب الاستكثار منهم وصعوبة الحال فى إرضائهم والغرر في مشاركتهم وما يلزمك من الحق لهم عند نكبة تعرض لهم فإن غدرت بهم أو أسلمتهم لؤمت وذممت وإن وفيت أضررت بنفسك وربما هلكت وهذا الذي لا يرضي الفاضل بسواه اذا تنشّب فى الصداقة واذا تفكرت في الهم بما يعرض لهم وفيهم من موت أو فراق أو غدر من

يغدر منهم كاد السرور بهم لا يفي بالحزن المُمِضّ [1] من أجلهم

وليس فى الرذائل أشبه بالفضائل من محبة المدح ودليل ذلك أنّه فى الوجه سخف ممن يرضى به وقد جاء في الأثر فى المدّاحين ما جاء إلا أنه قد ينتفع به فى الإقصار عن الشر والتزيّد من الخير وفي أن يرغب فى ذلك الخلق الممدوح من سمعه ولقد صح عندي ان بعض السائسين للدنيا لقي رجلا من أهل الاذى للناس وقد قلّد بعض الاعمال الخبيثة فقابله بالثناء عليه وبأنه قد سمع شكره مستفيضاً ووصفهُ بالجميل والرفق منتشراً فكان ذلك سبباً الى إقصار ذلك الفاسق عن كثير من شره

بعض أنواع النصيحة يشكل تميزه من النميمة لأن من سمع انسانا يذم آخر ظالما له أو يكيده ظالماً له فكتم ذلك عن المقول فيه والمكيد كان الكاتم لذلك ظالماً مذموماً ثم ان أعلمه بذلك على وجهه كان ربما قد ولّد على الذام والكائد ما يبلغه استحقاقه بعدُ من الاذى فيكون ظالماً له وليس من الحق ان يقتص من الظالم بأكثر من قدر ظلمه فالتخلص من هذا الباب صعب

(١) أمضّه الجرح أوجعه ومضه لغة فيه اه لسان العرب

إلاّ على ذوي العقول. والرأي للعاقل فى مثل هذا ان يحفظ المقول فيه من القائل فقط دون أن يبلّغه ما قال لئلا يقع في الاسترسال زائد فيهلك . وأما فى الكيد فالواجب أن يحفظه من الوجه الذي يكاد منه بألطف ما يقدر فى الكتمان على الكائد وأبلغ ما يقدر فى تحفيظ المكيد ولا يزد على هذا شيأ . وأما النميمة فهى التبليغ لما سمع مما لا ضرر فيه على المبلغ اليه وبالله التوفيق

النصيحة مرتان فالاولى فرض وديانة والثانية تنبيه وتذكير وأما الثالثة فتوبيخ وتقريع وليس وراء ذلك الا التركّل واللطام وربما أرشد من ذلك من البغي والاذى اللهم إلا فى معاني الديانة فواجب على المرء تزداد النصح فيها رضي المنصوحُ أو سخط تأذّى الناصح بذلك أو لم يتأذ . واذا نصحت فانصح سراً لا جهراً وبتعريض لا تصريح الا أن لا يفهم المنصوح تعريضك فلا بد من التصريح ولا تنصح على شرط القبول منك فان تعدّيت هذه الوجوه فأنت ظالم لا ناصح وطالب طاعة وملك لا مؤدي حق أمانة وأخوة وليس هذا حكم العقل ولا حكم الصداقة لكن

حكم الامير مع رعيته والسيد مع عبيده

لا تكلف صديقك الا مثل ما تبذل له من نفسك فان طلبت أكثر فأنت ظالم . ولا تكسب الا على شرط الفقد . ولا تتولَّ الا على شرط العزل والا فانت مضرٌ بنفسك خبيث السيرة

مسامحة أهل الاستئثار والاستغنام والتغافل لهم ليس مروءة ولا فضيلة بل هو مهانة وضعف وتَضْرية [1] لهم على التمادي على ذلك الخلق المذموم وتغبيط لهم به وعون لهم على ذلك الفعل السوء وانما تكون المسامحة مروءة لاهل الانصاف المبادرين الى الانصاف والايثار فهؤلاء فرض على أهل الفضل أن يعاملوهم بمثل ذلك لا سيما ان كانت حاجتهم أمسَّ وضرورتهم أشد

فان قال قائل فاذا كان كلامك هذا موجبا لإسقاط المسامحة والتغافل للاخوان فيه استوى الصديق والعدو والأجنبي فى المعاملة فهذا فساد ظاهر (فنقول) وبالله التوفيق كلامنا يحض الا على المسامحة والتغافل والايثار ليس لأهل التغنم لكن

(١) يقال ضري الشيءُ بالشي اذا اعتاده فلا يكاد يصبر عنه اه

للصديق حقاً فان أردت معرفة وجه العمل فى هذا والوقوف على نهج الحق فان القصة التي توجب الأثرة من المرء على نفسه صديقه ينبغي لكل واحد من الصديقين أن يتأمل ذلك الامر فأيهما كان أيس حاجة فيه وأظهر ضرورة لديه فحكم الصداقة والمروءة تقتضي للآخر وتوجب عليه أن يؤثر على نفسه في ذلك فان لم يفعل فهو متغلم مستكثر لا ينبغي أن يسامح البتة اذ ليس صديقاً ولا أخا فأما اذا استوت حاجتهما واتفقت ضرورتهما فحق الصداقة هاهنا أن يسارع كل واحد منهما الى الأثرة على نفسه فان فعلا ذلك فهما صديقان وان بدر أحدهما الى ذلك ولم يبادر الآخر اليه فان كانت عادته هذه فليس صديقا ولا ينبغي أن يعامل معاملة الصداقة وان كان قد بادر هو أيضا الى مثل ذلك فى قصة أخرى فهما صديقان من أردت قضاء حاجته بعد ان سألك إياها أو أردت ابتداءه بقضائها فلا تعمل له الا ما يريد هو لا ما تريد أنت والا فأمسك فان تعديت هذا كنت مسيئاً لا محسنا ومستحقا للوم منه ومن غيره لا للشكر ومقتضيا للعداوة لا للصداقة

لا تنقل الى صديقك ما يؤلم نفسه ولا ينتفع بمعرفته فهذا فعل الارذال ولا تكتمه ما يستضرّ بجهله فهذا فعل أهل الشر ولا يسرك أن تُمدح بما ليس فيك بل ليعظم غمك بذلك لانه نَقْصك ينبه الناس عليه ويسمعهم اياه وسخرية منك وهزؤ بك ولا يرضى بهذا الا أحمق ضعيف العقل. ولا تأس ان ذممت بما ليس فيك بل افرح به فإنه فضلك ينبه الناس عليه ولكن افرح اذا كان فيك ما تستحق به المدح وسواء مدحت به أولم تمدح واحزن اذا كان فيك ما تستحق به الذم وسواء ذُممت به أولم تذم

من سمع قائلا يقول فى امرأة صديقه قول سوء فلا يخبره بذلك أصلا لا سيما اذا كان القائل عيّابة وقّاعاً فى الناس سليط اللسان أو دافع معرّة عن نفسه يريد ان يكثر أمثاله في الناس وهذا كثير موجود وبالجملة فلا يحدث الانسان الا بالحق وقول هذا القائل لا يُدرى أحق هو أم باطل إلا أنه في الديانة عظيم فان سمع القول مستفيضاً من جماعة وعلم ان أصل ذلك القول شائع وليس راجعاً الى قول انسان واحد أو اطلع على حقيقته الا انه لا يقدر أن يوقف صديقه على ما

ونف هو عليه فليخبره بذلك بينه وبينه في رفق وليقل له ألنساء كثير أو حصّن منزلك وتفقّد أهلك أو اجتنب أمراً كذا وتحفظ من وجه كذا فان قبل المنصوح ونحرّز فحظّ نفسه أصاب وان رآه لايتحفظ ولا يبالي أمسك ولم يعاوده بكلمة وتمادى على صداقته إياه فليس في أن لايصدّقه في قوله مايوجب قطيعته فان اطلع على حقيقة وقدر أن يوقف صديقه على مثل ماوقف عليه هو من الحقيقة ففرض عليه أن يخبره بذلك وان يوقفه على الجلية فان غيّر فذلك وان رآه لايغيّر اجتنب صحبته فانه رذل لاخير فيه ولا نقيّة . ودخول رجل متستر في منزل المرء دليل سوء لايحتاج الى غيره . ودخول المرأة في منزل رجل على سبيل التستر مثل ذلك أيضاً . وطلب دليل أكثر من هذين سخف . وواجبٌ ان يجتنب مثل هذه المرأة وفراقها على كل حال وممسكها لايبعد عن الديانة

الناس في أخلاقهم على سبعة مراتب فطائفة تمدح في الوجه وتذم في المغيب وهذه صفة أهل النفاق من العيّابين وهذا خُلُق فاش في الناس غالب عليهم : وطائفة تذم في المشهد

والمغيب وهذه صفة أهل السلاطة والوقاحة من العيّابين : وطائفة تمدح في الوجه والمغيب وهذه صفة أهل الملق والطمع وطائفة تذم في المشهد وتمدح في المغيب وهذه صفة أهل السخف والنواكة . وأما أهل الفضل فيمسكون عن المدح والذم في المشاهدة ويثنون بالخير في المغيب أو يمسكون عن الذم . وأما العيّابون البرآء من النفاق والقحة فيمسكون في المشهد ويذمون في المغيب وأما أهل السلامة فيمسكون عن المدح وعن الذم في المشهد والمغيب ومن كلٍ من أهل هذه الصفات قد شاهدنا وبلوناه

إذا نصحت في الخلاء وبكلام ليّن ولا تسند سبّ من تحدثه الى غيرك فتكون نمّاما فان خشّنت كلامك في النصيحة فذلك إغراء وتنفير وقد قال الله تعالى « فقولا له قولاً لينا » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تُنفّروا » وان نصحت بشرط القبول منك فأنت ظالم ولعلك مخطئ في وجه نصحك فتكون مطالبا بقبول خطئك وبترك الصواب

لكل شيء فائدة ولقد انتفعت بمحك أهل الجهل منفعة عظيمة وهي انه توقّد طبعي واحتدم خاطري وحمي فكري وتهيج

نشاطي فكان ذلك سبباً الى تواليف لي عظيمة المنفعة ولولا استئثارتهم سا كني واقتداحهم كامني ما انبعثت لتلك التواليف

لاتصاهر الى صديق ولا تبايعه فما رأينا هذين العملين الا سبباً للقطيعة وإن ظن أهل الجهل أن فيهما تأكيداً للصلة فليس كذلك لان هذين العقدين داعيان كل واحد الى طلب حظ نفسه والمؤثرون على أنفسهم قليل جداً فاذا اجتمع طلب كل امرئ حظ نفسه وقعت المنازعة ومع وقوعها فساد المروءة وأسلم المصاهرة مغبّة مصاهرة الاهلين بعضهم بعضا لان القرابة تقتضي العدل وان كرهوه لانهم مضمرون الى مالا انفكاك لهم منه من الاجتماع في النسب الذي توجب الطبيعة لكل أحد الذبّ عنه والحماية له

فصل في أنواع المحبة

وقد سئلت عن تحقيق القول فيها وفي أنواعها

المحبة كلها جنس واحد ورسمها انها الرغبة في المحبوب وكراهه منافرته والرغبة في المقارضة منه بالمحبة وانما قدّر الناس انها تختلف من أجل اختلاف الاغراض فيها وانما اختلفت الاغراض من أجل اختلاف الاطباع وتزايدها وضعفها أو